

DOI: 10.54240/2318-014-001-007

من نماذج الأسرى الجزائريين بمالطا خلال القرن السابع عشر: قراءة في
منسوخات الأسير الجزائري علي بن يحيى الزواوي.

Examples of Algerian captives in Malta during the seventeenth
century: reading in manuscripts of the Algerian captive Ali bin
Yahya Al-Zawawi

صص 136-152

اسم ولقب المؤلف المرسل: إسماعيل زيان-Ziane Ismail

الدرجة والعنوان المهني: دكتور وأستاذ تعليم متوسط، ولاية الجلفة، دائرة مسعد

البريد الإلكتروني: ziane_ismail2005@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2023/12/04. تاريخ المراجعة: 2024/01/07. تاريخ القبول: 2024/05/13.

الملخص باللغة العربية: تعدّ مسألة الأسرى الجزائريين في الدول الأوروبية خلال العهد العثماني من المسائل التي قلّت فيها الدراسات، حيث اتّجه الباحثون لدراسة حياة الأسرى الأوربيين في الجزائر فقط إلّا ما ندر، ويبدو عزوف بعض الباحثين عن مسألة الأسرى الجزائريين بسبب قلة المصادر التي تحدّثت عنهم، وقلة الوثائق أو الرسائل المتبادلة بين الأسرى وأهاليهم في الجزائر. لكن مع توقّر بعض المصادر التي تتحدّث عن أحد الأسرى الجزائريين المسمى علي بن يحيى الزواوي، أتت هذه الورقة لوضع دراسة حول هذه الشخصية من خلال دراسة بعض المخطوطات التي نسخها بنفسه في جزيرة مالطا بأحد الأديرة هناك، والتي حملت في طياتها بعض الأخبار عن حياته.

الكلمات المفتاحية: الأسرى الجزائريون، علي بن يحيى الزواوي، مخطوطات، مالطا، القرن السابع عشر.

ABSTRACT: The question of Algerian captives in European countries during the Ottoman era is one of the question on which there have been few studies, as researchers tended to study the lives of European captives in Algeria only rarely, and some researchers appear to be reluctant to address the question of Algerian captives due to the lack of sources that talked about them, and the lack

of documents or letters exchanged between captives and their families in Algeria. Because of the above and the availability of some sources that talk about one of the Algerian captives named Ali bin Yahya Al-Zawawi, this paper comes to develop a study about this character by studying some of the manuscripts that he copied himself on the island of Malta in one of the monasteries there, which contained some news about his life.

Keywords: Algerian captives; Ali bin Yahya Al-Zawawi; Manuscripts; Malta; Seventeenth century.

المقدمة: كان حوض البحر الأبيض المتوسط في القرنين السادس عشر والسابع عشر محل تجاذبات وصراعات بين ساحل المغرب العربي والساحل الأوروبي، حيث كان الهدف من ذلك السيطرة على نقاط التجارة في غرب البحر المتمثل في مضيق جبل طارق، وشرق البحر الذي يمثل بوابة لطريق الحرير. وقد أدى ظهور القراصنة التابعين للدولة العثمانية أو للدول الأوروبية إلى تغيير في النفوذ على حوض البحر، وأدت الحروب البحرية بين الساحلين إلى أسر العديد من الجنود والتجار من كلا الطرفين.

وقد أسهبت الدراسات التاريخية بالجزائر في عرض مسألة الأسرى الأوروبيين في الجزائر من خلال دراسة الأرشيف المكتوب من طرفهم سواء كان رسائل أم مذكرات، والأرشيف العثماني الذي كان يسجل أسماء الأسرى، والمعاهدات التي كانت تجري بين حكام الجزائر والدول الأوروبية.

لكن بالمقابل نجد ندرة في تناول مسألة الأسرى الجزائريين في أوروبا، فلا توجد أبحاث تكأت على مصادر رصينة لدراسة تاريخ الأسرى الجزائريين في العهد العثماني، ولعلّ العذر في ذلك هو ندرة الوثائق التي تتحدث عن أمر أولئك الأسرى، فالأرشيف الأوروبي مازال موصدا وغير متاح بالشكل اللائق الذي يساعد على الدراسة والبحث. لكن مع هذا، فقد انبرى الأستاذ إبراهيم سعيود لدراسة هذا الجانب المظلم من تاريخ الأسرى المغاربة في إيطاليا من خلال زيارته المتكررة إلى إيطاليا وحصوله على مجموعة من الوثائق المهمة.

ومع ظهور بصيص نور من الأرشيف المالطي، استطعتُ الاطلاع على بعض المخطوطات التي نسخها أسير جزائري يدعى علي بن يحيى الزواوي، وقد كانت تلك المخطوطات بمثابة مفتاح لمعرفة حياة هذا الأسير الذي قضى أكثر من عشر سنين في الأسر، ومن هنا دفعني هذا

الأرشيف إلى التساؤل: كيف كانت حياة الأسر بالنسبة للشيخ علي بن يحيى الزواوي في جزيرة مالطا؟ وكيف كان التعامل معه في أسرته آنذاك؟

1- الحياة السياسية في الجزائر خلال القرن السابع عشر:

1-1 الاضطرابات العسكرية في الجزائر: بعد إنقاذ الأخوين خير الدين وعروج الجزائر من الغزو الإسباني، دخلت الجزائر مرحلة جديدة تحت ظلّ الدولة العثمانية¹، بإدارة ما يسمى بحكم البيلربايات (1544م-1578م)، ثمّ بحكم الباشاوات الذي امتدّ من سنة 1578م إلى غاية سنة 1659م، حيث حدّدت مدّة حكم «الباشا» بثلاث سنوات وذلك لعدم تمكنه من السيطرة على شؤون الولاية². ولهذا فقد تعاقب قرابة اثنين وعشرين رجلا من الباشاوات على حكم الجزائر مدّة 39 سنة، وقد تميّزت هذه السنوات بكثرة الاضطرابات الداخلية والخارجية، حيث بدأ الانكشاريون في الجزائر بالتمرد وإثارة الفوضى في البلاد، وأكثروا من عمليات السلب والنهب من جهة، وفرض الضرائب على الأهالي من جهة أخرى³، ما جعل الأهالي يحقدون على الدولة العثمانية.

أمّا عن الاضطرابات الخارجية، فهي كثيرة جدّا، فلم تسلم الجزائر من الهجمات الأوروبية، ففي سنة 1620م قام الأسطول الانجليزي بقيادة الأميرال (مانسيل) بحملة ضدّ الأسطول الجزائري⁴. وفي سنة 1645م دخل الأسطول الجزائري مع الأسطول العثماني في وقعة (كريت) ببحر أرخبيل اليونان فاستشهد يومها 250 جنديا وأسر نحو 150⁵. أمّا في سنة 1647م، قام الأسطول الفرنسي بحملة ضدّ العاصمة حيث أمطرها بوابل من المقذوفات⁶.

ومع تزايد الهجمات الأوروبية في عهد الباشاوات، بدأ المولى محمد بن الشريف العلوي سلطان الدولة العلوية بالمغرب بدخول الأراضي الجزائرية وكان ذلك سنة 1650م حيث أخضع

1- أحمد توفيق المدني- هذه هي الجزائر- مكتبة النهضة المصرية- مصر- بدون تاريخ- ص 69.

2- مبارك الملي- تاريخ الجزائر في القديم والحديث- مكتبة النهضة الجزائرية- الجزائر- 1964- ج3- ص 137.

3- عبد الرحمن الجيلالي- تاريخ الجزائر العام- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1994- ج3- ص 139.

4- عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق- ج3- ص 123.

5- عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق- ج3- ص 135.

6- عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق- ج3- ص 136.

بعض القبائل، وبدأ بالتقدّم حتى وصل إلى عين ماضي والأغواط، ما خلق قلقا عند السلطة العثمانية آنذاك¹.

وتوالى الأزمات في عهد الباشاوات، وأدّى ذلك إلى انقلاب الأهالي بقيادة رّياس البحر، وانتزعوا السلطة من الباشا²، وأسندوها إلى الأغا بشرط أن لا يزيد حكمه على سنتين. لكنّ هذا الانقلاب زاد من تأزّم الوضع، فقد بدأ الأغوات بالافتتال فيما بينهم للوصول إلى مركز الرئاسة لحدّ أنّ الأغوات الستة الذين تولّوا الحكم من سنة 1660م إلى غاية سنة 1665م قتلوا جميعا³.

1-2 الأسرى المسلمون والجزائريون في أوروبا خلال القرن السابع عشر: كان حوض البحر الأبيض المتوسط مسرحا للحروب البحرية بين الأساطيل المسلمة والأوروبية، وبين ذلك وذاك ظهرت أساطيل القراصنة، وكان الأسرى من جملة الغنائم التي كانت مطلب القيادات من أجل عقد صفقات تبادل أو وسيلة ضغط عند المعاهدات، ومن ذلك ما حدث حوالي سنة 1602م حيث اقتحم فرسان مالطا وفرسان القديس ستيفان مدينة الحمامات وأسروا قرابة 700 شخص، وبعد بنحو خمس سنوات تكرر الأمر ولكن في عنابة حيث أسر الفرسان 1500 شخصا من بينهم النساء والأطفال⁴. ومن ذلك ما حدث أيضا بين سنتي 1620م و1624م من بعض السفن الهولندية حيث رست على شواطئ الجزائر، وقام جنودها بإعدام الأسرى المسلمين شنقا على مرأى من السكان⁵. وفي فيفري سنة 1625م، جرت مفاوضات بين (جيمس) ملك إنجلترا وبين السلطنة العثمانية حيث تمّ إطلاق قرابة 400 أسيرا انجليزيا، لكنّ الملك نكث بالعهد ولم يطلق صراح الأسرى المسلمين ممّا عقّد حالتهم⁶ وجعل داي الجزائر آنذاك مستاء

1- أحمد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- دار الكتاب- المغرب- بدون تاريخ- ج 7-ص 21.

2- مبارك الملي- المرجع السابق - ج 3- ص 182.

3- عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق - ج 3- ص 166.

4- إبراهيم سعيود- وثيقة أرشيفية بابوية متعلقة بتعميد الأسرى المسلمين- العدد 15-16- مجلة الدراسات التاريخية- 2013- صص 237-261.

5- عبد الرحمن الجيلالي- المرجع السابق - ج 3- ص 124.

6- N. I. MATAR, Muslims In Seventeenth-Century England, Journal of Islamic Studies , January 1997, Vol. 8, No. 1 (January 1997), pp: 63-82

من نقض العهد¹. وفي سنة 1628م، أبرمت الحكومتان الجزائرية والفرنسية معاهدة تمّ فيها الاتفاق على تبادل الأسرى واحترام مراكب الطرفين ورفع الأسر عن المتعاهدين².

وقد كانت مالطا في ذلك الوقت أكبر سوق لتجارة العبيد في حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث ازداد عدد الأسرى المسلمين من طرف مؤسسة فرسان (القديس يوحنا) التي تأسست سنة 1530م، حيث زاد عدد قوادسهم³ التي كانت تجوب سواحل بلاد المسلمين خاصة بلاد المغرب الإسلامي، وبحلول سنة 1582م ارتفع عدد الأسرى في مالطا إلى 800 أسير⁴. أمّا عن الحالة الاجتماعية للأسرى المسلمين في أوروبا، فيذكر الباحث نبيل مطر أسر عشرات الآلاف من المسلمين في أوروبا من إنجلترا إلى فرنسا ومن إيطاليا إلى مالطا، حيث تراوح الأسرى بين الموت في الأسر أو التحوّل إلى المسيحية، أو فدية بعضهم وهروب البعض الآخر، وقد كان أولئك العبيد المسلمون يواجهون أبشع حالات الاستغلال حيث كانوا يشتغلون حراسا للحنات وحمالين وخداما في المنازل وحفارين للقبور أثناء الأوبئة، وعبيدا للمالكي السفن وعمّالا في المناجم⁵، ويضيف بقوله إنّ محن أولئك الأسرى المسلمين والعرب لم تدوّن وبقيت مجهولة، ما عدا ما هو موجود في أرشيف المكتبات الأوروبية⁶.

ففي إيطاليا مثلا، يذكر إبراهيم سعيود أنّ تدقّق الأسرى المغاربة في الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط أدّى إلى خلق أسواق للأسرى في ليفورنو وصقلية وروما وجنوة والبندقية ومالطا، فازدهرت تجارة العبيد، وقد كان المسلمون بادئ الأمر يعتبرون أسرى حرب لكنهم تحوّلوا إلى عبيد فيما بعد وبيعوا في تلك الأسواق⁷. ثم يضيف إبراهيم سعيود قائلا "إنّ

1- Ibid.

2- عبد الرحمن الجبالي- المرجع السابق - ج3- ص 127.

3- نوع من السفن البحرية ذات المجاديف، كانت تستعمل للحرب في حوض الأبيض المتوسط.

4- Eloy Martín Corrales, Muslims in Europe: Sixteenth to Eighteenth Centuries, chapter in "Muslims in Spain, 1492-1814", 2020, pp: 31-66.

5- Nabil MATAR, Muslim Captives In Early Modern European Sculpture, KARE- International Journal of Comparative Literature, 2022, pp: 98-124.

6- Ibid.

7 - إبراهيم سعيود- المرجع السابق، ص 237-261.

قضية الأسرى المغاربة المحجوزين في إيطاليا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هي من أعقد القضايا الاجتماعية والإنسانية التي شهدتها التاريخ البشري خلال تلك الحقبة"¹.
أما في الجهة الغربية من أوروبا، فقد كان الحال أسوأ من سابقها، حيث كان الأسرى المسلمون يواجهون أبشع الجرائم من تعذيب وقتل، فبعد سقوط دولة المسلمين في إسبانيا شيئا فشيئا، بدأ ملوك شبه الجزيرة الإيبيرية بإجبار ما تبقى من مسلمي الأندلس والأسرى المسلمين من البلدان الأخرى على اعتناق الديانة النصرانية، ولا شيء أدلّ على ذلك من محاكم التفتيش، وقد تفتطن بائعو العبيد إلى وجود صيد ثمين يتمثل في العلماء، فكانت أثمانهم في السوق مرتفعة جدًا، وكان علماء الطب المسلمين هم المطلوبون بشكل كبير جدًا. أما الفريق الآخر من العلماء فقد استغله الإسبان آنذاك في نسخ المخطوطات العربية ومحاولة ترجمتها للغتهم الأم، ومن ذلك كتب الفلسفة والهندسة والرياضيات².

2- منسوخات الأسير علي بن يحيى الزواوي

2-1 حياة الأسير علي بن يحيى الزواوي في مالطا: لقد كانت قيود الفراغ التي كان يكتبها الشيخ علي بن يحيى الزواوي في المخطوطات التي ينسخها بمثابة المفتاح لمعرفة جانب كبير من حياة هذا الأسير، فقد ذكر أنّ اسمه علي بن يحيى بن أحمد بن علي بن يحيى اليوسفي الزواوي³، وذكر أنّه شريف النسب⁴، وأنه خليفاي الدار⁵، إذن فهذا الأسير ينتمي لعائلة شريفة النسب من منطقة زواوة الجزائرية.

ويبدو أنّ الشيخ علي بن يحيى الزواوي قد وقع في الأسر سنة 1039 هـ/ 1629 م، وكان رجلاً مسنّاً، وهذا هو الذي ذكره الأستاذ ديونيسيوس أغيوخوس عند ذكره لتاريخ تعليم العربية

1- المرجع نفسه، ص ص 237-261.

2- فان كونينكسفلد، بيتر شور- الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة- نص الدرس الافتتاحي لتقعد منصب أستاذ كرسي التاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا سنة 1994 م- مجلة دفاتر الشمال- عدد 5- 2002- ص ص 19-32.

3- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 16.

4- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 1.

5- Cataloghi dei codici orientali di alcune biblioteche d'Italia, Partes 1 à 3 De Italy, Ministero dell'educazione nazionale; Publisher, Tipografia dei successori Le Monnier, 1878, p: 229.

في مالطا، حيث قال إنه الشيخ علي بن يحيى كان عبداً مسناً تابعاً لمؤسسة فرسان (القديس يوحنا)، ثم اشتراه الراهب فرانجيسك فليليس¹.

ومن خلال دراساتي لمنسوخات الأسير علي بن يحيى الزواوي، وجدتُ أنّ للرجل معرفة بعلوم اللغة العربية إضافة لخطّه الجميل الذي انتبه له الراهب فرانجيسك ما جعله كاتباً خاصاً له. أمّا عن حالته الاجتماعية، فقد كان الرجل متمسكاً بدينه ولم يعر اهتماماً لما يثيره الرهبان من حوله، حيث كان الشيخ علي بن يحيى على ما يبدو قاطناً في دير (القديسة مريم ليسوع) الواقعة بجزيرة مالطا، حيث يقول في أحد قيود الفراغ: "تمّ الكتاب ولله الشكر على يد العبد الفقير إلى الله علي بن يحيى الزواوي، كتبه للراهب المعظم المحترم شيخ أزمان الباذري فار فرنجيسك الملطاي، الوكيل والناظر في مصالح الكنيسة لمعظم سنّت مريّ دجس، وكان الفراغ منه عشية الجمعة سابع وعشرين من شوال عام اثنين وأربعين وألف من الهجرة، وصلى الله على مولانا وسيدنا وحبیبنا أشرف الخلق عند الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام"²، ويصف نفسه تارةً بأنّه "العبد الفقير الحقير الذليل المقرّ بالعجز والتقصير"³، وتارةً أخرى يقول: "...والحمد لله على دين الإسلام وتوفيق الإيمان وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله"⁴.

وقد كان الشيخ علي بن يحيى كارهاً لحالة الأسر في مالطا فكان دائم الدعاء عليها بقوله: "كملت المزامير مع بعض التسابيح بعون الله تعالى والحمد لله دائماً صبيحة يوم السبت أوّل في محرّم عام ثلاثة وأربعين وألف على يد الفقير الحقير المقرّ بالعجز والتقصير علي بن يحيى الزواوي الأسير بمالطة، دمرها الله تعالى، والسلام"⁵.

ويبدو أنّ الراهب فرانجيسك كان حسن المعاملة ودمث الخلق مع الأسير علي بن يحيى الذي كان يساعده في نسخ الكتب، وقد أخبرنا علي بن يحيى بولع الراهب فرانجيسك بجمع الكتب العربية، وأنّه كان ينسخ الكتب إجلالاً وتعظيماً لما يصنعه الراهب معه وذلك بقوله عند فراغه من كتابة تلخيصٍ لشرح جبريل على الأجرومية بقوله: "وهذا آخر الكلام على ما لخصنا

1- Dionisius A. Agius, The study of Arabic in Malta, 1632 to 1915, Louvain, 1990, p: 25.

2- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 3.

3- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 11.

4- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 1.

5- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 8.

من كلام الشيخ جبريل رضي الله عنه، والحمد لله على التمام والكمال. تمّ الكتاب بعون الله تعالى على يد العبد الفقير الحقير الذليل المقرّ بالعجز والتقصير، الراجي من الله غفران الذنوب وستر العيوب، وطالب من الله العفو على الزلل فيما أخطأنا في كلام الشيخ لأني لست أهلاً للتفسير، ولكن حملني على هذا الاضطرار إليه من أجل بعض الناس حتى حملت نفسي على الاقتداء في كلام السادات نفعتنا الله بهم في هذه الدار وفي تلك، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وأقسم بالله العظيم وبنييه الكريم على من لاحظ هذا الكتاب من إخواننا الذين لهم علمٌ في هذا الفن أن يعدلَ ويسامحَ ويدعو لنا بالغفران لأني علمتُ ما فيه من الحذف واللحن والغلط فربّ ناظرٍ سامحٍ سمح الله له، وكتبتهُ محبةً وكرامةً وإجلالاً لمن مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿وَرُفُهَاتًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (82) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴿[المائدة، 82-83]، وهو الراهب أبا عبد الله فار فرنجسقى المطاوي الدار، الساكن بكنيسة التي تسمى بـ"سنت مرية دي يسوع"، وكان والعًا بالكُتُب، وحملني عليه رغماً على أنفٍ، ولكن أرجو منه أن يكون آخره خيراً، وقد أحسن إليّ فيما بيننا، واسم الكاتب والمختصر لهذه الألفاظ الذي تقدّم ذكره، العبد الفقير الأسير بمالطه، علي بن يحيى الشريف الزواوي لطف الله به وغفر لوالديه وللمسلمين أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وكان الفراغ منه عشية يوم الجمعة الرابع والعشرون من شهر الله المعظم رجب عام أربعين بعد الألف، وأمّا بحساب النصارى عام ثلاثين وستمائة وألف، ومَلَكَ الكتاب المذكور الراهب المذكور، كُتِبَ لأجله، والحمد لله على دين الإسلام وتوفيق الإيمان وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله¹.

أمّا عن مدّة أسر الشيخ علي بن يحيى في مالطا، فالراجح أنّها فاقت العشر سنين وذلك لوجود كتاب نسخه سنة 1049 هـ/ 1639 م²، أي بعد 10 سنوات من أسره، والراجح أنّ علي ابن يحيى توفّي بمالطا وذلك بالنظر لكبر سنّه وللمدة التي أمضاها في الأسر، حيث استعمله الراهب فرانجيسك لنفسه في نسخ الكتب، واستنفذ طاقته، والله أعلم.

1- Provincial Library O.F.M Malta, MS A 1.

2- Cataloghi dei codici orientali di alcune biblioteche d'Italia, op.cit, p: 229.

2-2 دراسة وصفية لمنسوخات الأسير علي بن يحيى الزواوي: توجد بالمكتبة الفرنسية سكانية بمدينة فاليتا المالطية قرابة 12 مخطوطة نسخها الأسير الجزائري علي بن يحيى الزواوي، من أهمها:

تلخيص شرح الأجرومية للشيخ جبريل: وهي مخطوطة لخص فيها الأسير علي بن يحيى الزواوي شرح الشيخ جبريل (ت 939 هـ) على الأجرومية، وتقع النسخة في 86 ورقة بمسطرها قدرها 5 أسطر، تحت رقم (MS A 1)، وقد أتم علي بن يحيى نسخها في رجب سنة 1040 هـ/ 1630 م. رسالة "العوامل" للشيخ عبد القادر الجرجاني: نسخة مخطوطة تحت رقم (MS A 16)، عدد أوراقها بمسطرة قدرها 12 سطرا، نسخها الأسير علي بن يحيى في رمضان سنة 1039 هـ/ 1629 م.

أسئلة وأجوبة في الدين المسيحي: الشيء الجدير بالذكر هو ما جاء في هذه المخطوطة التي تحمل الرقم (MS A 7)، حيث تمثل الرسالة أسئلة وأجوبة حول الدين المسيحي باللغة الدارجة، تقع في 30 ورقة بمسطرة قدرها 15 سطرا، ويبدو أن هذه الرسالة كانت موجّهة لتعليم الأسرى المسلمين الديانة النصرانية وذلك من أجل تقريب الديانة لهم وترك الديانة الإسلامية، ولم يذكر الأسير علي بن يحيى زمن نسخها.

مزامير داود: رسالة باللغة العربية كتبها في مزامير داود مع بعض التسابيح، تحمل الرقم (MS A 8)، عدد أوراقها 146 ورقة بمسطرة قدرها 10 أسطر، وقد نسخها الأسير علي بن يحيى في محرم سنة 1043 هـ/ 1633 م.

إضافة إلى الرسائل السابقة، هناك أيضا رسائل أخرى نسخها علي بن يحيى في الأسماء والأفعال "في التثنية والجمع والتصريف" تحمل الأرقام: (MS A 3)، (MS A 9)، (MS A 10)، (MS A 11)، (MS A 12)، (MS A 13)، (MS A 14)، (MS A 15).

وهناك أيضا مخطوطة أخرى غير موجودة ضمن المجموعة السابقة، وهي نسخة من الشرح الكامل لشرح جبريل على الأجرومية حيث انتهى علي بن يحيى من نسخها سنة 1049 هـ/ 1639 م، وتوجد بمكتبة (نابولي) الإيطالية مع بعض المخطوطات الأخرى بخط يده¹.

1- Cataloghi dei codici orientali di alcune biblioteche d'Italia, op.cit, p: 229-230.

2-2 قيمة منسوخات الأسير علي بن يحيى الزواوي: إذا أخذنا في الاعتبار القيمة العلمية للرسائل العربية التي نسخها الأسير علي بن يحيى الزواوي فهي لا تعدو أن تكون استنساخا لرسائل معروفة آنذاك كرسالة الأبرومية ورسالة العوامل، وهذا ما خلص إليه المستشرق الإيطالي إيتوري روسي-Ettore Rossi حيث قال إن تلك المخطوطات قليلة الأهمية بالنسبة لما هو معروف من المخطوطات¹، لكن الشيء الذي أغفله المستشرق الإيطالي هو القيمة التاريخية لتلك المنسوخات التي أرخت لنا حياة أسير جزائري في جزيرة مالطا، بل وثقت لنا جهود الرهبان والأساقفة في تعلّم وتعليم اللغة العربية ومحاولة ترجمة النصوص المقدّسة من مزامير وتسابيح، وهذا أمر بالغ الأهمية، ويفتح الباب على مصراعيه لمعرفة المزيد عن حملات التنصير الموجّهة للأسرى المسلمين في البلدان الأوروبية.

3- قراءات لمنسوخات الأسير علي بن يحيى الزواوي:

3-1 القراءة التاريخية: بدأ اهتمام أساقفة ورهبان إيطاليا وجزيرة مالطا باللغة العربية منذ القرن السادس عشر، وهذا ما ظهر جليا في دير القديسة مريا ليسوع بـ"فالييتا-مالطة"، والذي كان علي بن يحيى قاطنا به، حيث بدأوا بترجمة النصوص الدينية من المزامير والأنجيل والآيات المقدّسة، وذلك كي يتقن طلبتهم تدريس ديانتهم باللغة العربية إضافة إلى لغاتهم الأم اللاتينية والإيطالية، حيث كانت أوراق الكتب تُقسم إلى قسمين بالطول، القسم الأول آيات من الإنجيل باللغة الأم تقابلها الترجمة باللغة العربية²

وبتأسيس ما يسمّى بمجمع الدعوة للإيمان سنة 1622 م، أبدى المجمع اهتماماً بتنظيم دراسات وإنشاء كليات لتعليم اللغة العربية، وكان اسم مالطا في الطليعة في هذا المسعى، فبعد إنشاء أول مدرسة للغة العربية في دير الرهبنة بالرباط سنة 1632 م، تمّ نقل المدرسة إلى دير (فالييتا) بمالطا³، وقد أبدى الرهبان المالطيون اهتماما كبيرا بدراسة اللغة العربية، فأخذوا بجمع المخطوطات العربية التي تتوجه أساسا لتعلّم قواعد اللغة العربية، حيث ظهر أول كتاب

1- Ettore Rossi-Manoscritti e documenti orientali nelle Biblioteche e negli Archivi di Malta-Livorno Tipografia Raffaello Giusti, 1930, p: 7.

2 Klabb Kotba Maltin, The School Of Arabic In The Friary Of Santa Marija Ta' Gesù (1482 – 1965), Valletta Malta, Spirit+Life. Review of Franciscan Culture, Malta, January - March 2022, pp: 12-20.

3- <https://ofm.mt/KummissarjatArtImqaddsa/history/>

أوائل القرن السابع عشر في أوروبا للكاتب الهولندي توماس إربينيوس، ووضع ضمنه تعليقا لاتينيا، ونُشر عام 1613م في ليدن¹، ثم جاء أوبيسيني ليضع كتابا حول قواعد اللغة العربية موافقا لرسالة الأبرومية ونُشر في روما سنة 1631م، وقد نُقل هذا الكتاب إلى مالطا وأصبح المنهاج الأول لتعليم قواعد اللغة العربية.

وبإمسك الراهب فرانجيسك فليليس زمام الأمور لتعليم اللغة العربية في الدير، بدأت الحركة العلمية بالتطور شيئا فشيئا، ففي سنة 1628م طلب الرهبان المساعدة من الأسقف الأكبر من أجل توفير مقرّ في الدير للراهب فرانجيسك، وطلب الراهب تزويده بالوسائل المتعلقة بالمقر الذي سيصبح مدرسة لتعليم العربية من أوراق وزيت للإضاءة². وقد وضع الراهب فرانجيسك نظاما تعليميا صارما أخذه من كلية سان بيترو دي مونتوريو في روما، حيث كان هدفه استعمال اللغة العربية في تدريس الديانة النصرانية وتعليم الكتاب المقدّس، فبدأ بوضع دروس باللغة العربية يستخدم فيها كلمات من الكتاب المقدّس على شكل تمارين نحوية³. وبما أنّ مالطا كانت معقلا للأسرى المسلمين، فقد كان الراهب فرانجيسك ينتهز الفرصة لإيجاد الأسرى المتعلمين منهم والمتقنين للغة العربية من أجل مساعدته في مشروعه الذي بدأه، ووقع اختياره على الأسير الجزائري علي بن يحيى الزواوي الذي كان مسنّا في ذلك الوقت، فاشتراه من جماعة فرسان (القديس يوحنا)، وبدأ الأسير علي بنسخ الدروس للراهب فرانجيسك⁴.

ويبدو أنّ قصة الأسير علي بن يحيى مع الأب فرانجيسك قد بدأت سنة 1629هـ/ 1629م، فكانت أول مخطوطة يخطّها في رمضان سنة 1039هـ/ 1629م، وبدأت حكاية الأسير الجزائري مع نسخ الرسائل بطلب من الأب فرانجيسك إلى غاية سنة 1049هـ/ 1639م، وهي آخر رسالة ظهر فيها اسم الشيخ علي بن يحيى الزواوي وهي محفوظة بمكتبة (نابولي) مع حوالي خمس مخطوطات.

1- Dionisius A. Agius, op. cit, p: 25.

2- Ibid.

3- Dionisius A. Agius, op. cit, p: 26.

4- Ibid.

2-3 القراءة التحليلية: بتصفّح تلك المخطوطات التي نسخها علي بن يحيى نجد أنّ بعضها موجّه لتدريس الديانة المسيحية، حيث تمّ إدخال الألفاظ التي لها علاقة بالترانيم والتسابيح في المنهاج الدراسي لتعلّم قواعد اللغة العربية، أمّا الأمر الجدير بالذكر هو محاولة ترجمة بعض تعاليم الديانة المسيحية باللغة الدارجة بالمغرب العربي عامة والجزائر خاصة، حيث نجد ذلك واضحاً في المخطوطة التي تحمل رقم (MS A 7) والتي كانت كل كلماتها مشكولة، مع عدم كتابة حرف الهاء الذي يدل على الإضافة، ومن الراجح أنّ صاحب الترجمة هو علي بن يحيى الزواوي بإلحاح من الراهب فرانسيسك، ولندكر أمثلة على ذلك من بداية الرسالة التي جاء فيها: "تَبْدَا نَشْرَحُ تَغْلِيمَ قَوَاعِدِ دِينِ لِمَسِيحٍ إِلَى مَعْرِفَتِهَا ضَرُورِي لِكُلِّ مَنْ يَرْغَبُ خُلَاصَ نَفْسٍ...سُؤَالَ: أَمَسِيحِي أَنْتَ؟ جَوَابٌ: نَعَمْ بِنِعْمَتِ اللَّهِ تَعَالَى. مَنْ هُوَ الْمَسِيحُ؟ ج: هُوَ الَّذِي يَعْتَقِدُ بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ وَشَرِيعَتِهِ. عَلَى أَيِّ شَيْ يَكُونُ مِتْنَأَسَسَ إِيْمَانُ الْمَسِيحِ خَاصَّ؟ ج: عَلَى السِّرِّينِ الْعَظِيمَيْنِ الْمُحْتَوَيْنِ فِي إِشَارَتِ أَصْلِبِ وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَثْلِيثُ وَتَجَسُّدُ مُخْلِصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَوْتُهُ".

ويبدو أنّ تلك الرسائل كانت موجّهة أيضاً لتعليم الديانة المسيحية للأسرى المسلمين، حيث وقرت لهم وسيلة التعلّم من خلال ترجمة النصوص الدينية من آيات الإنجيل المحرّف ومن الترانيم والتسابيح التي يتلوها الأساقفة والرهبان، ويؤكد ذلك وجود الترجمة باللغة الدارجة التي كانت تستهدف العدد الكبير من الأسرى المسلمين المغاربة. ويظهر ذلك الأمر في بعض المصادر التي ذكرت أنّ تدريس اللغة العربية كان وسيلة لنشر الدين المسيحي بين الجاليات المسلمة في الجزر المالطية، حيث كان المبشّرون يصعدون على متن القوادس ويبحرون إلى الأراضي الإسلامية، ولذلك نظّم الآباء اليسوعيون والرهبان الفرنسيون دروساً لتعليم اللغة العربية، خاصة الفصحى لرعاياهم، من أجل معرفة كيفية التعامل مع المسلمين وتحويلهم عن دينهم¹.

1- Dionisius A. Agius, The Cognitive Landscape of Seventeenth Century Malta: Communicating Information in a Cosmopolitan Society, Chapter in The Netherlands in Magic in Malta: Sellem bin al-Sheikh Mansur and the Roman Inquisition, 1605, Islamic History and Civilization, Volume 185, Brill , 2022, pp: 323-348.

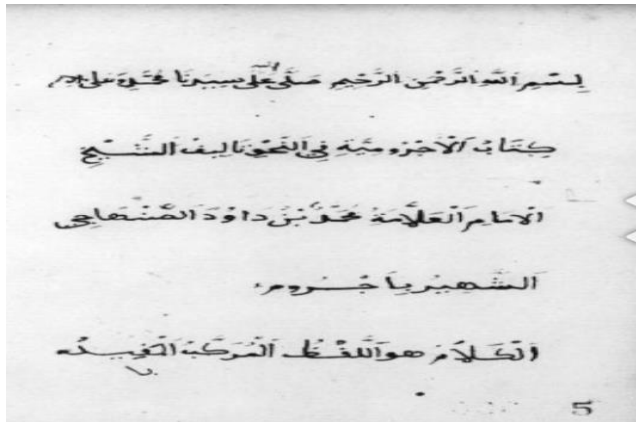
الخاتمة: كانت هذه الورقة دراسة لحياة أسير جزائري في جزيرة مالطا يدعى علي بن يحيى الزواوي، دارت أحداثها في بداية القرن السابع عشر، وقد حملت المخطوطات التي كتبها هذا الأسير في ثناياها أخبارا تشير إلى حالة الأسرى المسلمين والجزائريين في البلدان الأوروبية، وقد خرجت من هذه الورقة بعدة نتائج يمكن إجمالها كالآتي:

- إن قضية الأسرى الجزائريين في العهد العثماني مازالت قضية مطروحة للبحث ولم يعتن الباحثون الجزائريون بدراسة، باستثناء الأعمال المهمة التي قام بها الأستاذ إبراهيم سعيود من دراسة لجانب مهم في تاريخ الأسرى المغاربة في إيطاليا.

- إن حياة الأسرى الجزائريين في البلدان الأوروبية كانت بمثابة حياة بائسة، يترنح فيها الأسرى بين التعذيب والتنصير والعمل الشاق، بل إن الأوروبيين كانوا يستغلون أهم شيء يجيده الأسير، وهذا ما لحظته في هذه الورقة حيث استغل الراهب المالطي معرفة علي بن يحيى الزواوي لقواعد اللغة العربية والنسخ، فاشتراه بغية الاستفادة من ذلك.

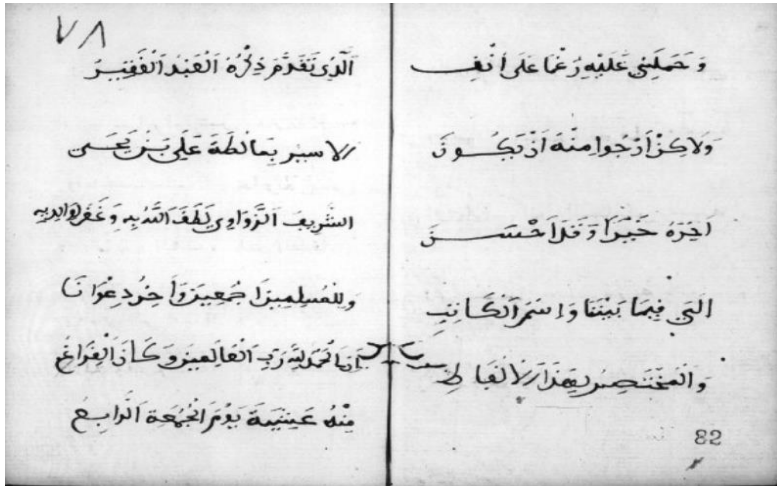
- إن محاولة الحصول على الأرشيف الأجنبي بكل الطرق المتاحة من طرف الباحثين الجزائريين يجب أن تكون محاولة جادة، لأن التعويل على المصادر العربية والمحلية في البحث في قضية الأسرى الجزائريين سينتهي بالباحثين إلى طريق مسدود، وسوف تتأخر الدراسات عن الظهور أو لا تظهر أبدا.

الملاحق:



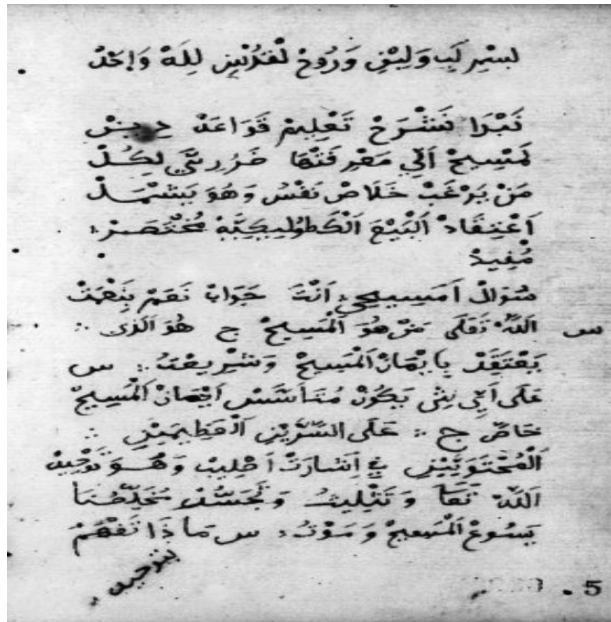
الصفحة الأولى من مخطوط متن الأجرومية

بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي



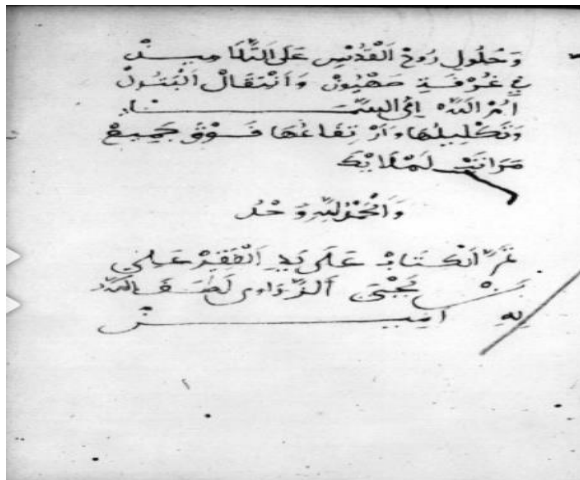
ورقة من آخر مخطوط متن الأجرومية

بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي



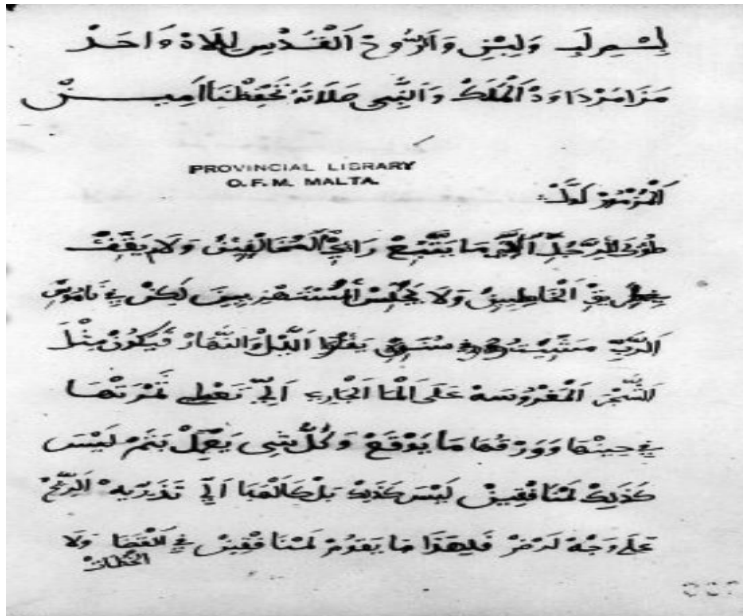
الصفحة الأولى من مخطوط أسئلة وأجوبة في الدين المسيحي

بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي

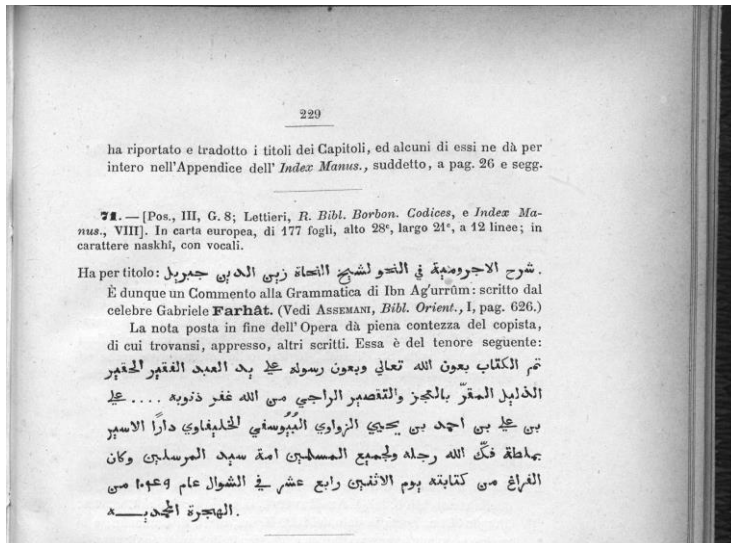


الصفحة الأخيرة من مخطوط أسئلة وأجوبة في الدين المسيحي

بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي



الصفحة الأولى من مخطوط مزامير وتساييح مسيحية
بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي



صفحة من فهرس مخطوطات مكتبة نابولي مذكور فيها مخطوط

بخط الأسير علي بن يحيى الزواوي

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد توفيق المدني- هذه هي الجزائر- مكتبة النهضة المصرية- مصر- بدون تاريخ.
- 2- مبارك الملي- تاريخ الجزائر في القديم والحديث- مكتبة النهضة الجزائرية- الجزائر- 1964.
- 3- عبد الرحمن الجيلالي- تاريخ الجزائر العام- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1994.
- 4- أحمد الناصري- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- دار الكتاب- المغرب- بدون تاريخ.
- 5- إبراهيم سعيود- وثيقة أرشيفية بابوية متعلقة بتعميد الأسرى المسلمين- العدد 15-16- مجلة الدراسات التاريخية- 2013.
- 6- فان كونينكسفلد، بيتر شور- الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة- نص الدرس الافتتاحي لتقلد منصب أستاذ كرسي التاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا سنة 1994م- مجلة دفاتر الشمال- عدد 5- 2002.
- 5- N. I. MATAR, Muslims In Seventeenth-Century England, Journal of Islamic Studies, January 1997, Vol. 8, No. 1 (January 1997).
- 6- Eloy Martín Corrales, Muslims in Europe: Sixteenth to Eighteenth Centuries, chapter in "Muslims in Spain, 1492-1814", 2020.
- 7- Nabil MATAR, Muslim Captives In Early Modern European Sculpture, KARE-International Journal of Comparative Literature, 2022.
- 8- MS A 16, MS A 1, MS A 3, MS A 11, MS A 8
- 9- Cataloghi dei codici orientali di alcune biblioteche d'Italia, Parties 1 à 3 De Italy, Ministero dell'educazione nazionale; Publisher, Tipografia dei successori Le Monnier, 1878.
- 10- Dionisius A. Agius, The study of Arabic in Malta, 1632 to 1915, Louvain, 1990.
- 11- Ettore Rossi-Manoscritti e documenti orientali nelle Biblioteche e negli Archivi di Malta- Livorno Tipografia Raffaello Giusti, 1930.
- 12- Klabb Kotba Maltin, The School Of Arabic In The Friary Of Santa Marija Ta' Ġesù (1482 – 1965), Valletta Malta, Spirit+Life. Review of Franciscan Culture, Malta, January - March 2022, pp: 12-20.
- 13- <https://ofm.mt/KummissarjatArtImqaddsa/history/> (date: 10/10/2023)
- 14- Dionisius A. Agius, The Cognitive Landscape of Seventeenth Century Malta: Communicating Information in a Cosmopolitan Society, Chapter in The Netherlands in Magic in Malta: Sellem bin al-Sheikh Mansur and the Roman Inquisition, 1605, Islamic History and Civilization, Volume 185, Brill , 2022.